المرأة في العراق

كان العراق مهد المدنية ولم يزل حتى اليوم مطمح انظار المتمدنين ومطمع نفوس المصريين وقبلة آمال السياسيين ولكن قلَّ من تصدَّى منهم للبحث عن المرأة العراقية وامعن في التنقيب عن منزلتها الادبية والاجتماعية . وقبل ان اعالج هذا الموضوع لا بدَّ لي من كلمة عن العراق لما بين الديار واهلها من الارتباط . فالعراق يشتمل على سهول واسعة يخترقها دجلة والفرات ومن امهات مدنه بغداد والبصرة وفيه من المقامات الدينية الاسلامية ما يجلب اليه المسلمين من اربعة اقطار المسكونة للزيارة والتبرُّك . وهو آهل بالسكان من كل ملة ونحلة من مسلمين ونصارى ويهود وصابئة ويابية وفيه كثير من الاوربيين للتجارة والتعليم . والدين في العراق يفصل بين السكان في الازياء والعادات ولهذا نضطر ان نقسم مقالتنا الى ثلاثة اقسام فنبحث في القسم الاول عن المرأة المسلمة وفي الثانية عن المسيحية وفي الثالثة عن الاسرائيلية . اما الصابئيات واليابيات فليس لهنَّ شأن كبير في العراق لقلتهنَّ

ا — المرأة المسلمة

هي اما بدوية واما حضرية وبينهما فرق كبير في العادات والازياء والاخلاق . فالبدوية تنزع الى الاخلاق العربية البحتة فتخرج مسفرة الوجه بل ترافق الرجل الى ميدان الوغى وتنفث في نفسه الشجاعة والبسالة باغانيها الحماسية وتهاليلها . وهي حسنة الملامح ربعة القوام خفيفة الحركة تنشط الى عملها وتصل صباحها بمسائها في شغل البيت والمزرعة والسوق وتتخذ فاتحة اعمالها طحن الدقيق بالرحى التي تديرها بيدها . وبينما تطحن البر ترنم بالاغاني العربية الشجية والالحان المطربة تخفيفاً لمتاعبها . وتخبز الخبز وتعالج المآكل وتنزل الصوف وترعى الماشية وتنقل الماء من النهر وان كان بعيداً عن محط رحال قبيلتها بضعة اميال . وتهتم ببيع الصوف والسمن واللبن والدجاج والبيض وما ضاهى ذلك من نتاج الماشية وحاصلات الارضين . وما اجمل منظر البدويات وهنَّ حاملات طبَ اللبن خماس وسداس على رؤوسهنَّ مسرعات في سيرهنَّ ساعات طوالاً حتى يبلغن المدينة فيبعن احمالهنَّ في الاسواق ويرجعن الى احيائهن في قرّ الشتاء وهاجرة الصيف . وترى الاعرابية احياناً حاملة طفلها على ظهرها او منكبيها فوق عبئها . ونساء البادية أبيَّات النفوس لا يسفلن الى ما يشين آدابهنَّ ويحطّ من شرف منزلتهنَّ او يجحف بعفافهنَّ لا بل يندر التهتك بينهنَّ . والرجال غيَّرٌ على الاعراض وعندهم ان الوصمة التي تصم الفاجرة بها ذويها وبيتها لا تمحى الاَّ

يسفك دمها . وفي امرأة البدوية شيء من الذكاء الفطري العربي الا انها غرة جاهلة لا تقرأ ولا تكتب بتاتاً ولا تعرف شيئاً من اصول دينها وعقائده . وتعذر على جهلها هذا لانها في بيئة قد ضرب الجهل اطنابهُ فيها وآنائ بكلكله عليها لا مدرسة هناك ولا معلم ولا قلم فينشأ الرجال والنساء في البادية على سنن واحد من الجهل والغباوة

والبساطة شعارهنَّ في اللباس كما انها شعارهنَّ في احوالهنَّ كلها ويتألف لباسهنَّ من ثوب واحد فقط وليس لهنَّ غيرهُ من الالبسة الداخلية . لونهُ اسود او نيلي حالك يدعونهُ « الدارية » ويتردين فوقهُ عباء اسود يلتحفنهُ على رؤوسهنَّ عند خروجهنَّ من البيت وهو غليظ النسج من صنعة الوطنيين ويتمصبن بعصائب سوداء ايضاً . والموسرات منهنَّ يتزيَّنَّ بحلى الذهب والفضة كالاساور والاقراط والخجرلـــ والخزام والطوز والمرجان والكهربا الصناعيين والمسامح الخزفية التي ترد الى اسواق بغداد من النمسا . ومن زينتهنَّ الوشم الازرق في كل اقسام الجسد . وقلما ترى بنت البادية الا وفي جسدها كثير من الوشم ويدعوهُ الاعراب « الدق » و يلفظونها « الدك » ويقولون ان الوشم يليق بالجسد الناصع البياض ويستهجن في الاجسام السمراء

والرجل وحدهُ حق اختيار الزوجة فيخطبها الى ابيها ويتقدمها مهراً يتراوح بين القليل والكثير بحسب مقام عشيرتها وحسبها ولا يسوغ لها ان تعترض على زوج يختارهُ لها والداها

اما الحضرية العراقية من الطبقة العليا والوسطى فهي شديدة التحجب والحضريات من السواد يشبهن في عوائدهنَّ واخلاقهنَّ كل الشبه اخواتهنَّ بنات البادية . ولكن اغلب الحضريات متخطات من حيث العلوم والمعارف وتدبير المنزل الامن قد اعتنى بهنَّ والداهنَّ اعتناء حسناً وخرَّجاهنَّ احسن تخريج في البيوت الخاصة او مدارس الراهبات . وقد يظن بعض الرجال ان تعلم المرأة مدعاة الى الزندقة والتهتك ولكن الاسلام يجيز تعليم المرأة لا بل ينزله منزلة واجب وقد جاء في الاحاديث « ان العلم واجب على كل مسلم ومسلمة » وهذا يدلكم ايها القارئ العزيز على الدرك التي تردَّى هذا المبدأ في الاسلام اذ كان في صدر الاسلام كثير من الصحابيات والتابعيات وراويات الحديث والعالمات المتفقهات والشاعرات فوجود مثل هؤلاء النساء حجة لامعة على صحة ما نقول . وملامح الحضرية لا تختلف كثيراً عن اختها البدوية الا في بياض البشرة وغضاضتها صانهما ظل البيوت من سطوة الشمس وزادت الحضارة شيئاً من الترف والخلافة في محاسنها مما ليس للبدوية

وملابس الحضريات تختلف اختلافاً بيناً في كل طبقة . تلبس نساء الفقراء ملابس

تضاهي ملابس البدويات اما الغنيات منهن فيلبسن الصوف والقطن والحرير والمشارف والزخارف والحلى من كل نوع من فضة وذهب وتجارة كريمة كاللاس والزبرجد والياقوت واللؤلؤ وغيرها. اما ازياؤهن فتختلف كل الاختلاف فمنهن من ينزعن الى الازياء العربية ومنهن من يفضلن الازياء الاوربية الحديثة الا انهن جميعاً لا يخرجن من بيوتهن الا محجبات مبرقعات يتغطين بعباءتين من حرير يلبسن احداهما على المنكبين والظهر ويلقين الاخرى على رؤوسهن ويبرقعن ببرقع حرير. ومن الازياء الوطنية «الزبون» وهو «القباز» بلهجة السوريين و«الجلابية» بلهجة المصريين وعندهن «الهاشمي» وهو عبارة عن ثوب من قماش رقيق كل الرقة واسع الاكمام والاطراف تلبسهُ المرأة فوق «الزبون» فيشف عما تحتهُ وهو لباس لطيف يكسو المرأة جلالاً ويلأها هيبةً. والحضريات يجدلن شعورهن ويتركن على ظهورهن قصيبتين او قصائب يوصلنها بتراميل من ذهب تدلى على ظهورهن فيسمع لها صوت عند تبخترهن. ومنهن من يخضبن ايديهن وارجلهن بالحناء ويوشمن اجسادهن بالوشم الازرق. ومن عاداتهن شرب اللفائف والنرجيلات والقهوة في المجتمعات وفي الانفراد. ولهن في الزواج عادات كثيرة لا محل لذكرها هنا وانما نجتزىء بالقول ان زواج البنات بيد والديهن وليس لهن حرية انتقاء الازواج. ومن العادات الشائعة الطواف بجهاز العروس في الطرق والشوارع لتقدمهُ الموسيقى ويتبعهُ الطبل والزمار. وجهاز العروس يتألف من شيء كثير من اثاث وفرش وسجاد ومنصات ومصابيح وبلورات وغيرها. هذه العادة جارية عند النصارى ايضاً الا انهم تخلوا عنها رويداً رويداً منذ بضع سنوات ولكن لم تزل آثارها باقية

٢ المرأة النصرانية

حضارة مضطربة ومدنية لا صفة خاصة بها ولا مميزة عمرانية تمتاز بها. تلك حالة المرأة النصرانية البغدادية التي تعد ارقى نساء العراق وارقهن منزلة في العلم والعرفان. يرجع الفضل في ذلك الى الراهبات الفرنسيات اللواتي اسسن مدارسهن في بغداد منذ سنة ١٨٨٠ ولم يزلن يدأبن في تثقيف البنات وتعليمهن اللغة العربية والفرنسية والضرب على البيانو والخياطة والتطريز حتى ان كثيرات من بنات الفقراء يعلن ذويهن بما يكسبنهُ من الربح من صناعة ايديهن. وقد شرعت الراهبات في تدريس اللغة الانكليزية بنوع فائوني منذ احتلّ الانكليز بغداد. وهن ينزعن الى العادات والازياء الاوربية غير مميزات ما كان صالحاً لبيئة العراق او ما كان غير صالح لها. والمرأة النصرانية العراقية تحب بيتها

وتحترم عشيرة زوجها وذويها وهي مطبوعة على العفاف والوفاء في القول والعمل · صناع تميل الى تجميل بيتها وتزويق ديوانها بنظام وترتيب عجيبين · وليس بين بنات النشأة الجديدة في مدن العراق الاصليين بنت تجهل القراءة والكتابة واصول الدين النصراني· والناشئة الجديدة تلبس اللباس الاوربي بكل متعلقاته الاَّ البرنيطة تلبسها حديثات السن فقط قبل ان يبلغن سن الرشد وتلبس المراهقات والنساء الازار العراقي من الصنعة الوطنية · وهو مصنوع من حرير او حرير وقصب وتختلف الوان الازر ورسومها اختلافاً كبيراً · واذا دخلت محفل نساء او كنيسة والقيت نظرة على مجتمعهن خيل لك انك في حديقة زاهية مزينة بالازهار · وتختلف قيمة هذه الازر من ليرة واحدة الى ٢٥ ليرة وربما جاوزت ذلك · ومما يضحك في زي المرأة النصرانية هو ان لباسها يكون على آخر طرز اوربي فالعروس مثلاً تتردى ثياباً يطابق زيها ما في كتب الازياء التي تأتي من اوربا ولا تغفل ان تلبس القفاز الحريري الابيض والستار الابيض (Voile de mariage) وتحمل باقة الازهار فتخرج بهذا الزي من بيت ابيها وتسير الطريق كلهُ على هذه الصورة حتى بيت عروسها · ولكنها تلبس ايضاً حجلاً (خلخالاً) من ذهب في رجلها · وتقص شعر راسها حسب الزي الاوربي او تترك لها قصيبتين وتجدل بها قراميل الذهب وهذا ايضاً من باب الجمع بين التمدن العربي والاوربي · وتعصب النساء المتقدمات في السن رؤوسهن « بالجتيابة » او « البازمة » وهي عصائب سوداء او ملوّنة · وزي المتقدمات في السن ينزع الى الزي الوطني اكثر منهُ الى الزي الاوربي

ولا تتحجب المرأة النصرانية في هذا العصر خلافاً لما كانت عليهِ قبل قرن بل تستقبل الرجال في ديوانها وتجالسهم وتخاطبهم ويدور معظم حديثها على الحلي وحوادث المدينة وادارة البيت وتتطرق احياناً الى الاخبار السياسية ان سمعت منها شيئاً من افواه الرجال · وهي فصيحة اللهجة فتقة اللسان تحسن وصف الوقائع والمناظر وتحوز القدح المعلّى في الانتقاد · ولو اعتنى اولو الامر ببناتنا لنبغ منهن نابغات وكاتبات شاعرات · وتجهيز آداب المعاشرة عند نصارى بغداد رقص النساء مع الرجال في حلقة عمومية في حفلات الاعراس

ولا حاجة للقول ان الزواج عند نصارى بغداد يكون باتفاق الابنة مع ذويها على شاب تعرفهُ وقد جالستهُ طويلاً خلافاً لما كانت عليهِ العادة قبل بضعة عقود من السنين · ولم تدخل عادة البائنة (الدوطة) عندنا بل يكتفي الاهل بتجهيز ابنتهم بثياب كثيرة واثاث ربما كان اغلبهُ ليس من الضروري ويهدي الاغنياء الى ابنتهم بعض الحلي والرجل

يهدي اليها ايضاً من الحلى ما يختلف باختلاف منزلته وثروته

وفي بغداد جالية من نصارى الموصل كشكليف والقوش وبخديدا وبطنايه وغيرها ويبلغ عدد هذه الجالية ستة آلاف شخص وهم اربعة اضعاف نصارى بغداد الوطنيين ويختلفون عن الوطنيين في اخلاقهم وعاداتهم وازيائهم ولغتهم . اذ يتكلمون الكلدانية العامية وهي مزيج من الكلدانية والعربية والكردية والتركية . وتلبس نساؤهم لباساً خاصاً بهن يشبه لباس نساء بيت لحم وللن عادات كثيرة في الاعراس والمآتم وهذه الجالية طيبة السريرة ذكية الفطرة ومنذ هبوطها بغداد حتى اليوم (اي منذ نحو نصف قرن) تقدم عدد غفير منها في سبيل الرقي حتى ضاهوا اهل بغداد في اللباس والعادات والعرفان والاخلاق

٣ المرأة الاسرائيلية

عدد يهود بغداد نحو ستين الف نسمة يرتقي تاريخ بعضهم الى سبي بابل . ومنهم من نزل العراق بعد ذلك العهد البعيد ولنا كلام في تاريخ يهود العراق سننشره يوماً على صفحات هذه المجلة . بقيت المرأة الاسرائيلية في بغداد منحطة الشأن خاملة المنزلة حتى اواخر القرن التاسع عشر وكانت جميع النساء متحجبات لا يجالسن الرجال ويلبسن لباساً خاصاً بهنّ وجنسيتهنّ حتى قيض الله للقوم جمعية الاتحاد الاسرائيلي الفرنسية فانشأت مدرسة لبناتهن ورفعت شأن المرأة الاسرائيلية البغدادية من حضيض الانحطاط العلمي الى بعض الرقي . الاّ ان هناك فتقاً يجب رقعهُ وهو ان المدرسة الواحدة غير كافية يرقي جميع الاسرائيليات فعسى ان يهتم سراة القوم بحالة بناتهم اقتداء بسيدة فاضلة منهم هي السيدة لورا خضوري التي تبرعت بمبلغ ٧٠٠٠٠٠ فرنك لتشييد مدرسة البنات وهي بناء فسيح متقن الهندسة محكم البنيان

ان النساء اليهوديات من العائلات الوسطى والسفلى يتعاطين كثيراً من المهن للارتزاق فمنهن من يحملن الى بيوت الطريز الحلى والمجوهرات والملبوسات وغير ذلك ومنهن من يطرزن بخيوط الفضة او الذهب و يقصبن بالقصب حواشي المبي او يطرزن خيوط «الشعري» التي ترد من الهند . والدوطة جارية عند اليهود فاذا كانت الابنة التي يراد زواجها جميلة الصورة كانت دوطتها قليلة والاّ زيدت دوطتها . وعند اليهود دلاّل خاص بمسئلة الزواج يحسم مقدار الدوطة و يعقد المقاولة بين المتزوجين . وللاسرائيليات المنحطات عادات واوهام وخرافات تضحك الثكلى و يضرب بها المثل هنا

يوسف رزق الله غنيمة